

## نظرات ثاكرى (١)

- ٢٢ -

وليام مكيبس ثاكرى القصصى الإنجليزى الشهير، قد اتهمه بعض النقاد بسوء الظن بالنفس الإنسانية. والنفس إذا وصف كاتب سيئاتها اتهمته بسوء الظن والعداء؛ لأن هذا الاتهام أسهل من التخلص من سيئاتها التى سببها الغرائز والشهوات المتمكنة من النفوس.

وقد رأى بعض المفكرين أن هذه الغرائز والشهوات لن تتغير ولن تبدل وأن النفس إذا استطاعت أن تتخلص منها أو تلتطف من حدتها أصابها الضرر والعجز. ومع ذلك فإن المفكرين من قديم الزمن يصفون عيوب النفس البشرية أملاً أن تتخلص منها أو تلتطف من حدتها. ولا أذكر أكان مينكين الأمريكى هو الذى وصف الإنسان فسماه القرد الأبدى لعجزه عن التخلص من الحماقة والشهوات وحب التدمير والأذى، ولقصوره عن الأخذ بأسباب تعميم نتاج العلم وتعميم الاستفادة منه. ولولا أن الكاتب يؤمن فى صميم نفسه أن الإنسان وهب القدرة على تلطيف عيوبه وتهذيبها والتخلص منها كلها أو بعضها ما كلف نفسه مثونة وصفها. وبالرغم من أن ثاكرى قد يؤلم مبضعه فى شرح صفات النفوس كما يؤلم مبضع الطيب إذا فصد الدملى فإنه كثير الحنان والعطف على النفوس، فهو يجمع بين السخر والحنان. وهو بين الإنجليز من هذه الناحية مثل أناتول فرانس بين القصصيين الفرنسيين. وكما اشتد ثاكرى فى نقد سخر سويفت فى كتابه المسمى (كتاب الفكاهة) اشتد بعض الكتاب فى مؤاخذه ثاكرى، ولكن شتان بين سويفت وثاكرى، فليس فى سويفت حنان ورقة وعطف كما فى ثاكرى

(١) المقتطف، يوليو سنة ١٩٥٠.

فإن سخر ثاكرى مقرون إلى رقة وسماح وصفح جليل، ولو أنه قد يشتد في بعض قصصه ورسائله ويعنف. وبعض قصصه لا ترى فيها ما يسمى في اصطلاح المؤلفين أبطالاً. ولا يغيب عنا أن ثاكرى وزميله ديكنز من كتاب العصر الفكتورى، أى عصر الملكة فكتوريا، وهو عصر مشبع بمظاهر التزمت والكبر في التزمت، ولكن ثاكرى لا يعنى ذلك العصر من سخره، ولا يعنى مافيه من نفاق وتجبر وقسوة، كما لم يُعف المحتالين والمغامرين والأفاقين الذين خرجوا على سنة العصر الفكتورى. وبعض النقاد يرون أن قصة (سوق الغرور) هى أعظم قصصه. وقد تكون كذلك من الناحية القصصية الفنية. ولكن عندى أن أعظم قصصه هى قصة (هنرى إزموند) التاريخية، وقد فضلها الناقد الكبير الأستاذ سينتسبرى فإن لها سحراً عجيبياً، والفن الذى يقتضيه وصف بياتركس وأمها من غير زلل فنٌّ من أعجب الفنون، ثم إن عظم موضوع القصة إذا أضيف إلى عظم الفن يزيد فى قدر القصة، ولو أن إجادة صاحب الفن لا تقتضى موضوعاً كبيراً كى يجيد، ومن قصصه الأخرى قصة (بارى لندن) و (الفرجينين) إلخ إلخ. ومن كتبه كتاب (الرسائل الدائرة) وهى أشبه بما يتخلل قصصه من رسائل قصيرة وكلمات فى وصف الناس وكتاب (الأدعياء) إلخ إلخ.

### وفيما يلى بعض نظراته مع الشرح والتعقيب:-

١ - كثيراً ما ينتقص النساء من عقل المرأة ذكائها (أو من أخلاقها) إذا كانت أعظم منهنّ جمالاً وأتم حسناً ولم يستطعن انتقاص حسنهما، كأنما يردن بانتقاص عقلها ألا ترجهنّ بمجموع ما وهبت من ذكاء وجمال. وهذا عكس ما يفعله الرجال، فإن ذات الوجه الجميل والعينين الفاتنتين تغتفر لها حماقة كثيرة، وقلة عقلها تكتسب فيها رشاقة وحلاوة تغطيان على قلة عقلها - والواقع أن الإنسان كثيراً ما يخدعه انتظام التقاطيع فيحسب أنه مقرون دائماً إلى انتظام العقل والعكس بالعكس.

٢ - فى سوق الغرور التى هى الحياة قلما يتألم الإنسان من وخز ضميره إذا عمل شراً، وإنما هو يتألم لا من الندم على عمل الشر بل من الندم لافتضاح أمره وانكشاف سره وشره، فيخلط ضميره عمداً بين نوعى الندم؛ كى يظهر بمظهر

الأبرار، أو كى يقال إنه كَفَّرَ بالندم ووخز الضمير عما ارتكب من الشر. وقد يكون الرجل نفسه مخدوعاً بما يخدع به غيره، فإن الشعور يُلبَسُ على صاحبه حقيقته فيخال من تأنيب الضمير وهو من ألم الأثرَةِ وحب الذات.

٣ - لو فطناً إلى ماقد يخالط أنبل الأخلاق وأسمائها من نقص أو دناءة لتركنا التفاخر والتباهى بالفضائل ووصلنا النفوس بالعطف والرحمة.

٤ - إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتياب الناس أكثر ذيوغاً من الصدق الذى يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أن قلوب الناس تربة حجرية لاتنمو فيها بذور أقوال الخير الرقيقة؟ وما لاشك فيه أن اغتياب الناس وذمهم يصادفان من الانشراح والإقبال والائتناس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير، كأنك فى الحالة الأولى تطهيمهم بتوابل تدعو النفس إلى أكل لحومهم.

٥ - أى الصفات نالت أعظم مدح منذ عهد حرب تروادة إلى اليوم؟ أليست هى الشجاعة والجرأة والإقدام؟ فقد طالما أشاد بها الشعراء والكتاب وأغفلوا الصفات الفاضلة الأخرى، ولم يعيروها اهتماماً كاهتمامهم بهذه الصفات. ألا يجوز أن يكون السبب أن الإنسان جبان بطبعه يجنح إلى الخوف والفرع أكثر من جنوحه إلى قلة المبالاة والإقدام صيانة للحياة واعتزازاً بها، فيغطى على ذلك بمدح الشجاعة كى يقال: إنها صفته الغالبة ويطرى الشجعان كى يقال عنه: إنه منهم. ولعل من أسباب مدحه الشجاعة أيضاً أنه يريد أن يحمل نفسه عليها، ويغطى عنها مخاوفها، كما غطاها عن الناس.

٦ - بعض النساء لهنَّ ولع بأن يضعنَّ من يحبنَّ فى مكانة تشبه مكانة آلهة الوثنيين فى المعبد فتقدم له البخور والمدح والثناء، سواء أكان ذلك عن عقيدة فيه أو حيلة، وهذا يضايق الرجل؛ لأنه يلزمه صفات الكمال دائماً وهو لا يستطيعها. فيمل كما يمل (الدائلى لاما) فى التَّبَتِ ويتشاءب من عبادة عباده.

٧ - قلما يهتم الناس كبر عقل الرجل أو عظم فضائله قدر ما يهتمُّ آدابه المريحة فى معاشرتهم إياه وسلوكه فى إرضائهم؛ لأن كل إنسان يأنس إلى ما يريحه. وأما رجاحة تفكير المعاصر وعظم فضائله فكثيراً ما تضايق عشيره؛

ولذلك كثيراً ما تضايق عشيره؛ ولذلك كثيراً ما يحكم الناس على عقل الرجل وفضائله بما يريحهم أو بما لا يريحهم فى سلوكه معهم - أو حتى بما يتخيلون أنه يريحهم أو لا يريحهم.

٨ - إن بعض الناس لا ينالون الاطمئنان فى الحياة حتى يغالطوا أنفسهم ويخادعوها ويحملوها على أن تعتقد أن العدل يطرأ فى الحياة ويعم - فهل يترد العدل فى حياة الناس؟؟ هل كل راكب فاضل وكل ماش مفضول؟ وهل الأول عادل والثانى ظالم. وهل الفضل دائماً مُفضَّل والنقص دائماً مؤخر؟ وهل المرائى المنافق دائماً مخذول؟ وهل ينصرف الناس عن التهافت على مالا قيمة له من الكتب والأشياء والأمور؟ وهل هم لا يقبلون على الخطيب المهرج الماهر؟؟ وهل لا يُرقى الرجل ولا يُقدَّم ولا ينجح إلا بماله من عقل وفضل وهمة وكفاية؟ وقس على ذلك أسئلة أخرى كثيرة. وخليق بالمرء أن يكون أشجع وأقوى من أن يعجز عن تحمل الحياة إلاً بالأكاذيب.

٩ - قلما ينال الإنسان خيراً إلاً وهو يرى أنه يستحقه ويستحق أكثر منه؛ ومن أجل ذلك نشأت قلة الشكر وظهر غمط المعروف وجحد الجميل المصنوع؛ إذ قلما تعد نعمة المتفضل تفضلاً منه، بل حقا واجباً لمن نالها. وفى بعض البيئات المنحطة لا يكتفى نائل المعروف بغمطه وجحده، بل يتعاضم على من صنع المعروف أو يحقد عليه فى سريره؛ كى يظهر له إنه إنما أخذ بعض حقه وأنه أكبر وأعظم من أن يقرَّ لأحد بفضل عليه.

١٠ - لو اختار بعض العلماء المؤرخين أن يتتبع جرائم الفضلاء، وأن يكتب كتاباً فى تاريخ الشر والضرر اللدنيين صنعهما أهل الفضيلة أو من يرون أنفسهم من أهل الفضيلة لكان كتاباً عجيباً ممتعاً واعظاً للناس، فمن الذين أحرقوا البروتستانت؟ إنهم فضلاء الكاثوليك. ومن هم الذين أحرقوا الكاثوليك؟ إنهم فضلاء البروتستانت. ومن الذين يضطهدون الناس فى الحياة الاجتماعية وينشرون عنهم أخبار السوء ويصفونهم بصفات السوء ويدعون الناس إلى اضطهادهم وإيذائهم ويجدون لذة فى ذلك؟ هم الذين يرون أنفسهم أو يريدون أن يقنعوا الناس أنهم أفضل من غيرهم. ومن هى التى تتبع جيرانها لاستخراج ما تعتقد

من سيئاتهم، أو ما لاتعتقد، ولتستخرج سيئات أجدادهم إلى الجدل الرابع أو أكثر وأبعد من الجدل الرابع لكي تؤذيتهم بنشر السوء عنهم؟ إنها السيدة الفاضلة - أو التي تعتقد أو تريد أن يعتقد الناس أنها سيدة فاضلة. وهي إذا عثر الحظ السيئ بإنسان وجندله أمامها في الوحل رفعت أنفها إلى السماء تعاضماً وتعالياً وجمعت ثيابها كي لا يلوئها العائر المسكين - وإن كان من المحال أن يلوئها وهرولت صارخة باشمئزاز من حظه العائر السيئ مبتعدة عنه. . . . . حقا إننا في حاجة إلى كتاب في تاريخ جرائم الفضلاء!

١١ - إن الإحسان طعام عسر في الهضم. ومن أجل ذلك قد يخلق من ناله مذمة للمفضل إذا لم يجد فيه مذمة كي تكون عذراً له إذا فك عن نفسه مايعده أغلالاً وأصفاداً للمعروف. . . ترى هل كان المسافر الذي نجاه السامري من اللصوص - في قصة الكتاب المقدس - شاكرًا لمن نجاه من اللصوص؟ أم أنه كان يجد غضاضة في أن يكون مدينًا لإنسان بفضل عليه؟ وهل هذه الغضاضة جعلته يتذكر أن كل سامري عقيدته فيها انحراف في نظره؟ وهل اتخذ من انحراف عقيدة من نجاه عذراً له كي يجحد ما أداه إليه من معاونة وكي يتقحم عليه بالذم كي يفك عن نفسه أصفاد المعروف وأغلاله؟

\*\*\*

## نظرات ثاكرى

- ٢٤ -

١٢ - إن ألفاظ السباب إذا صارت سنة جارية فى البيئـة وتعودها الإنسان كانت أمراً مألوفاً، فكل إنسان يشتم غيره ويقبل الشتم من غيره، فىصير تبادل المزاح بأشد أنواع السباب والشتم فى مثل هذه البيئـة نوعاً من السماحة والكرم الحائى ودليلاً على الألفة والمودّة - ولكن من الغريب أن العشيرين فى هذه البيئـة قد يتبادلان السباب وأشد أنواع الشتم بالبشاشة والسماحة فى مجلس وفى مجلس آخر قد تؤدى الكلمة الهينة أو الكبيرة من السباب إلى إراقة الدماء والقتل .

١٣ - ليس من السهل أن نعرف الحد الذى عنده ينتهى باعـث احترام المرء نفسه بإخفاء حقيقة حاله وتجمـله صوتاً للناس عن الاطلاع على حاجته وسوء حاله، وهو الحد الذى يبتدىء عنده النفاق المرذول، فكم من أناس ينفقون فى المظاهر ويبدلون للكماليات ما هو أحق بالإنفاق على الضروريات - ويرون سعادتهم فى هذه الخطة كى يستطيعوا الزهو والكبرياء، وتعير من لا يستطيع الإنفاق فى سبيل الكماليات، وليحسب الناس أنهم إنما ينفقون فى الكماليات عن سعة فى الرزق، وكى يستطيعوا احتقار غيرهم ممن ضاقت به الحال أو ممن كان أعقل من أن يلتزم هذه الخطة فى الإنفاق على الكماليات وهو محتاج إلى الضروريات . والناس أولى بأن يعطف كل على أخيه بدل الزهو والمباهاة المؤسسة على الباطل .

١٤ - إن نصف آلام المحب إذا زهد فيه من يحبه وجفاه ناشئ من الغرور والعُجب بالنفس، لا من الرقة والحنان وطيب القلب . ولكنه يخلط بين أثرته وطيب قلبه وحنانه، وقد يفعل ذلك مخدوعاً بإحساسه وهو لا يدرى، كما يُخدع

به القصصيون الذين يصفون أمثال هذا العاشق المهجور، فيكون في انخداعهم وخذاعهم للقارئ شيء من السماحة إذا فطن القارئ.

١٥ - بعض الناس قد تغيظهم سعادة أصدقائهم إذا طالع هؤلاء طالع يُمن، ولكنهم بالرغم من ذلك إذا أصاب صديق سوءاً وحلّت به كارثة يعطفون عليه ويظهرون الإشفاق عليه من شقائه الذي حلّ به بعد أن كانوا يحسدونه على سعادته ونجاحه. فالنفس الإنسانية قد تجمع بين مرارة الحسد وحلاوة العطف، وبين أحقاد المنافسة والمشاركة في الحزن والمصاب. فإن أحقاد المنافسة قد تختفي في نفس المرء عندما يعثر الحظ بمنافسيه، فيظهر له كرم المشاركة في الحزن (إمّا خالصاً وإما مزوجاً بشيء خفي من التشفّي والارتياح) فராفة الشهامة وخسة الدناءة قد تجتمع في النفس الواحدة وقد تمتزج فيها.

١٦ - قد تعارف أكثر الناس على أن لكل منهم الحق في أن يغتاب صديقه، ثم يتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام وإظهار للود إذا اجتمعا (وقد يسمع كل منهما بأذنه حتى ساعة اللقاء أو قبيلته شتم الآخر له، فيدعى أنه لم يسمع - ومن يحاول من الناس حملهم على تغيير هذا الطبع يلاقى مقتاً وعداءً، كأنه يريد أن يحرمهم من حق لهم مقرر مفروض معروف، ألا وهو حقهم في اغتياب معاشريهم وزميلهم، وكأنهم يخشون إذا تنازلوا عن حقهم طوعاً ألا يتنازل غيرهم فتلحقهم الخسارة، ويحل بهم الغبن، وينقلبون بالغیظ على من يريد حملهم وحضهم على التنازل عن حقهم المقرر المفروض في اغتياب معاشريهم وزملائهم ويعدونه ظالماً لهم أو قليل الإنصاف.

١٧ - إن المرء قد يزول حبه أو تفضى مودته لإنسان، فلا يرى في زوال حبه، وفناء مودته، خيانة منه لذلك الإنسان ولا غدرًا به، ولا نقصاً في نفسه، أما إذا زالت مودة إنسان له فإنه يدهشه زوالها ويعد ذلك الزوال غدرًا ونقيصة وخيانة، حتى أنه قد يبش من صلاح الناس والحياة، وقد يبخل نفسه بالحزن والضيق مع أنه كان لا يرى في تغييره للناس مضايقة لهم ويتألم. وكان لا يرى في تبدله للناس أبداً ألبماً لهم، ولا يفطن إلى أن ذلك الخلق منه من الأثرة وحب الذات الذي

يبیح لنفسه مالا یبیح للناس، وینعی ویعیب علی الناس مالا ینعی ولا یعیب علی نفسه.

١٨ - كثيراً ما نخطئ فنظن أن عهدى الطفولة والصبا هما عهدا البراءة والطهارة والخلو من الكذب والخداع. وعندى أن كثيراً من الكبار لا يتقنون خداع الناس وتكلف غير الحقيقة لهم كما يتقنه الصغار. وهؤلاء الصغار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بأمر ينبغى ألا تجوز عند أحد أو تنطلى أو تختفى أو تلبس، وكلما كبر الإنسان تعلم كيف يقدر الحق، وكيف يميل إلى البساطة إلا إذا ظل المرء أشبه بالطفل فى كبره، وكم من كذبة من صغير السن أججت نار عدا بين الكبار، والكبار ينسون ما كانوا عليه فى صغرهم من استساغة الكذب وسهولته لديهم، ولا يصدقون أن صغيرهم الطاهر البرىء كاذب فيقبلون قوله على علاته، ويمعنون فى العدا بسببه، ولعل عجز الصغار أمام إلحاح رغباتهم أو خيالهم أو أهوائهم وقلة خبرتهم بأمر الحياة أمور تدعوهم إلى عدم المبالاة إذا اعتزموا الكذب وتهيئ لهم وسائل استثمار ثقة الكبار بهم. وأمثال هذه الأمور هى التى تحملهم على سلوك ما ينافى سداجة الصغر وما يجافى طهارته - ثم هم إذا فوجئوا فى هذا المسلك أنكروا سلوكه بدهشة وحدة. وهذه الدهشة وهذه الحدة يشتبه فيها البرىء وغير البرىء.

١٩ - مما يزيد المرء اعتقاداً فى عظمته، ويسهله لديه ويمكنه منه خضوع من حوله وتملقهم إياه فيلبس لباس العظمة الذى يلبسه إياه من حوله، وهم إذا أقنعوه بعظمتهم لنيل مأرب من جاهه أو مرتبته أو ماله أقنع نفسه وأقنعوا هم أنفسهم بعظمتهم على الأقل إلى أن ينالوا ما يريدون، والرجل المتواضع الذى لا يرى فى نفسه عظمة إذا عرض لهذا التأثير فإنه قد ينتهى بأن يظن فى نفسه العظمة. والمشاهدون وأمثال هذه المحاولات ينتهى بهم الحال إلى الاقتناع بعظمة هذا الإنسان من طريق العدوى أو الطمع الأشعبي فى خير يصلهم عن طريق هذه العظمة التى يؤسسونها لغيرهم. ولولا هذا الانخداع الأشعبي ما اشترك أكثر الناس فى الاعتراف بعظمة إنسان أو تأسيس بنيانها.

٢٠ - من الغريب أن اثنين من الناس قد يشعران بميل كل إلى الآخر أو بنفور كل من الآخر من غير سبب ظاهر وجيه معروف، وكما أن بعض الناس قد ينفر من رائحة يحبها غيره أو يتأذى ويمرض من طعام يصح به غيره، فكذلك قد ينفر إنسان من مودة إنسان آخر ويصيبه مرض إذا ذاق مودة هذا الإنسان، بينما يذوق غيره تلك المودة ويستطيعها فيلتهما التهاماً ويصح على ذلك ولا تدرى سبباً ظاهراً معروفاً لهذا الأمر.

٢١ - كما أن عبّاد الشيطان يعبدونه، ولكنهم يحرمون ذكر اسمه، كذلك بعض الناس يتصفون بصفات السوء، فيطلون بها بطلاء يخفيها، ويرون أنه ليس من الكياسة واللباقة والآداب وصف أخلاقهم، حتى ولو كان وصفاً عاماً، ولكنه كالحز في الفصل. ويعدون ذلك من كره الواصف للإنسانية المعذبة ومن قلة الرحمة بالناس، وهم يأبون هذا الوصف إذا خشوا أن يلحظ الناس فيه تعريضاً بسيئاتهم. . . . أما إذا كانوا يريدون الأذى لإنسان زال تحريم ما كانوا يحرمونه من وصف السيئات ولا يفتنون إلى أن هذا أيضاً تعريض بسيئات نفوسهم.

٢٢ - إن حكمة الله الخفية قد تقضى أن يقهر أهل الخير والفهم، وأن يذلهم وأن يرفع أهل الأثرة والحماقة والشر، ومن أجل ذلك ينبغي أن يتواضع صاحب النجاح والسعادة، وأن يخشع أمام إرادة الله وقسمة الحظوظ التي تقضى بذلك وألا يغتر بنصيبه من الحياة فإنه أشبه بما يسمى (اليانصيب)، فالحياة كثيراً ما تكون كاللاقتراع: هذا ينال الدمقس والحريير والقصور المشيدة، وذاك نصيبه الخرق البالية، ومعاشرة الكلاب الضالة. ولكن الإنسان قلما يؤمن بذلك، بل يرى أن كل إنسان نال ما يستحقه من الطيبات، فمن حرم منها كان حرمانه دليلاً على نقص وعيب، ومن لم يحرم منها بل كان نصيبه من طيبات الدنيا جزيلاً دلت جزالة نصيبه على خلوه من النقص والعيب. ولقد رأيت من مظاهر النجاح وعرفت من أسبابه ما زهدنى فى الهتاف للناجحين ومن السير فى ركبهم. وسواء رأيت محافظ المدينة ذاهباً إلى وليمة فى قصر المحافظة أم رأيت سجيناً يقاد إلى المشنقة فإنى لا أغترّ بظواهر الأمور، بل أنظر فى نفسى، وأنظر فى نفوس

الناس، فأرى أن محافظ المدينة ليس أعظم منى نفساً، ولست أعظم نفساً من الأثم الذى يسار به إلى الهلاك، وأن الأول لو ربى كما ربى الثانى لكان مثله .

٢٣ - يقول بعض المتكالبين على النجاح: (النزاهة أحسن وسيلة للنجاح) ولو اطمأن الرجل غير النزيه إلى أن قلة النزاهة أحسن وسيلة للنجاح لما تردد فى أن يكون غير نزيه، وبعضهم يرددها وهو غير آخذ بسنة النزاهة كى يظن من يعامله أنه آخذ بها، ولعله يرددها كى يأخذ الناس بها، فيريح من نزاهتهم ثم يحرمهم الريح من نزاهته .

٢٤ - ما أعجب رشاقة المرأة إذ تنافق وترائى، وما أحب وألطف خفتها ولباقتها إذ تُدَاهِن وتُداجى من غير تَعَثُّر أو ارتباك؛ ذلك لأن الضعيف المغلوب على أمره يحاول أن يتقن هذه الصفات، وأن يكسبها جمالاً ومحبة . وقد مرت المرأة فى عصور طويلة كانت فيها فى حاجة إلى أن تتعلم رشاقة الرياء وجمال المداينة .

٢٥ - قد يستسيغ المرء الناس وعشرتهم على مضض وألم، وهو يحاول إخفاء ذلك، كمن يشرب الدواء المرَّ للضرورة فى هدوء واستسلام، ولكن تقلص وجهه يدل على ما يعانى من مضض، وإن أنكر ذلك، وقد يستعين بقطعة من السكر ليزيل به مرارة الدواء، كما يستعين الأول بما هو شبيه بقطعة السكر كى يزيل مضاضة عشرة الناس من نفسه .

\*\*\*

## نظرات بلزك<sup>(١)</sup>

- ٢٥ -

قال ستيفان زفايج إن الصفة الغالبة على أبطال قصص أونوريه دى بلزك القصصى الفرنسى الشهير هى صفة الطمع والوصول إلى الغاية حتى ولو أدت إلى الخيبة، وهذه الصفة ربما نمت فى نفس بلزك، لأنه عاش فى شبابه فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت الذى حاول أعظم محاولة، وكانت له أطماع تحدوه إلى أقصى غاية، ثم خسر كل شىء فى سبيل الوصول إليها. ومن الجائز أن يكون الأمر كما ذكر زفايج، كما يجوز أن يكون بلزك بطبعه يميل إلى ذلك. وقد حاول أن يصل إلى أقصى غاية فى تأليف القصص واستيعاب العالم والنفوس فى قصصه، فضحى حتى بالحب فى هذا السبيل، وكان يشتغل فى كثير من الأحيان أكثر ساعات يومه فى تأليفها، فهو راهب من أجل الفن. وكان يلبس لباس الراهب، وقد أحبَّ مدام هنسكا سنين طويلة ثم تزوجها، ولكنه مات بعد زواجه منها بأشهر قليلة.

وبالرغم من ميل بلزك إلى الإطالة فى الوصف أو فى البحوث القانونية أو العلمية فإن له قدرة عجيبة فى قصص المأساة، وقد أجاد فى القصص القصيرة كما أجاد فى القصص الطويلة، ويصح أن يسمى أبا الفن القصصى الحديث، فمته أخذ فلوير، وعن فلوير أخذ جى دى موباسان وغيره.

ويصح أن يسمى أبا الفن الواقعى، وذلك لأن أحاد قصصه كما قال بودليير: كانوا مثل المدافع المحشوة بذخيرة المتفجرات، فهم أيضاً كان حشوهم الحيوية والعزيمة.

(١) المقتطف، ١ نوفمبر سنة ١٩٥٠.

وقد يدهش القارئ من كثرة قصصه ومن كثرة إجادته فى الكثير منها، ولا نظن أن أحداً صنع مثل ذلك غير شكسبير فى شعر القصص التمثيلية .

ومن قصصه الشهيرة قصة (الأب جورنو) و (قطعة من جلد الحمار الوحشى) و(الأحلام الضائعة) و (البحث عن الحق المطلق) و (سيزار بيروتو) إلخ . . .

ومن قصصه القصيرة قصة (الجلاد) الفردوجو، وقصة (غرام فى الصحراء)، و(آية فنه)، و (مأساة على شاطئ البحر)، (المرانا) إلخ . . .

وكان بلزك يعيش مع آحاد قصصه كأنهم وكأنهن أحياء ويقاسمهم مسراتهم وأحزانهم، ومسراتهن وأحزانهن، فقد زاره صديق فوجده مهموماً، وابتدره بلزك قائلاً: لقد قتلت المسكينة نفسها، فذعر الزائر حتى عرف أنها إحدى بنات الخيال فى قصصه .

وهذا يذكرنا بفلوبير؛ فإنه عند ما وصف هلاك (مدام بوفارى) بالسم ظهرت عليه أعراض التسمم. وخسر بلزك مالا كثيراً بالرغم من دقة وصفه لطرق التمول والاعتناء فى قصصه .

عاش بلزك للفن، ولا نظن أن أحداً فعل فعله، إن السير والترسكوت كان يقضى أكثر وقته فى كتابة القصص حتى أوقات المرض والألم، ولكنه تزوج وخلف خلفاً واتصل بالأمرء وأولم اللواتم، فلم يعيش مترهباً كما عاش بلزك . ومع ذلك فإن بلزك الراهب فى الحب والحياة، والذى قال لجوتيه: إن المرأة تلهى صاحب الفن عن فنه - هو الذى وصف النساء أدق وصف كما وصف الرجال من طبقات مختلفة، ووصف أعمالهم وخواطرهم وأفكارهم .

### وفيما يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب :-

١ - قد يفقد الإنسان كل إيمان بنجاح أملة، ومع ذلك يظل متعلقاً بالأمل متشبهاً به بالرغم من فقدان الإيمان بنجاحه، وإنما تعلقه بالأمل بعد أن يفقد الثقة به توقع منه لفرة غير منظورة تجلبها له الحياة، وهذا التشبث يعينه على تحمل كثير من مكاره الحياة .

٢ - ليس لكل حادثة أثر واحد وعاقبة لا تغير مهما تغير الذين تقع بهم الحادثة، فإن المصيبة التي قد تستبث قوى العبقري وملكاته وإن أرهقته قد تقضى على رجل آخر وتردى ذوى العزيمة الضعيفة فى الحضيض، كما انها قد تكون فرصة كسب وريح للرجل المستيقظ الذهن لوسائل الكسب وحيل الريح .

٣ - إذا كان نسيان العاجز ضعفاً ونقصاً، فإن من النسيان ماهو قوة فى النفوس العظيمة المتكررة؛ فإن نسيانها مثل نسيان الطبيعة التي تنسى كى تستجد الأمور وكى تبتكرها .

٤ - إن من أخطاء الشبان أنهم يشعرون أن كل إنسان مهما كان عمره ينبغى أن يكون عند حيويتهم ونشاطهم وآمالهم وثقتهم بالأمور، وهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بهذا الشعور، لأنهم يرون الحياة ووهج الشباب منعكس عليها .

٥ - إن النساء اللواتى يكتسبن بصيرة بالمستقبل إنما يكتسبها من وعيهن للحاضر من الأمور . وتنبئن ناشئ من دقة جهازهن العصبى التى تمكنهن من بحث وتفسير مظاهر الفكر والإحساس . وهنّ باستدلالهنّ على المستقبل من الحاضر، إنما مثلهنّ مثل الملاح الذى يستطيع برؤية السماء أن يرى ماهو مخبوء عن غيره من مطر أو إعصار أو صحو .

٦ - كل عصر له ميول وكل بيئة لها نزعات، ويستطيع الرجال الماهرون الذين عندهم ملكة الريح واليقظ لوسائل الكسب والاستعداد النفسى له، أن يتاجروا بميول عصرهم ونزعات بيئتهم مهما كانت نبيلة تستدعى التضحية .

٧ - إذا انحرف حظ الرجل وساءت حالته فإنه قد يصير لعبة لأحقاد الناس وأهوائهم، ومن الخطأ أن يتعرض لتلك الأعاصير الإنسانية، وأن يجعلها تدفعه كل مدفع . كما تكون الريشة فى مهب الريح . وإذا أراد السلامة فليقبع كما يقبع المنكب على الأرض كى يتجنب شدة الريح وعصفها حتى تمر الإعصار، وإذا وقف فإنما ينبغى أن يقف كى يعرف من أية جهة تهب الأعاصير ليستطيع تجنبها .

٨ - إننا دائماً نخيب ونخفق من الجانب الذى أضعفناه من أنفسنا، أو استرسلنا فى ضعفه، إن كان خلق معنا الضعف .

٩ - يخطئ من يظن أن الحيوانات لا تشعر بالذعر والألم شعوراً شديداً كالإنسان، فإن الحيوانات المنزلية قد تصرخ من الفزع صراخاً شديداً إذا أصابها إنسان بألم هين عقوبة لها، بينما هي إذا أصابها جرح من حركاتها فقد لا تصرخ ولا تصيح.

١٠ - إن القوة التي تستنفد نفسها بمجهود عنيف مبالغت، تحدث أثراً مؤقتاً أقوى في نفوس الناس وخيالهم من قوة في مثل مقدارها تؤثر أثراً بطيئاً طويلاً، وهذا يصدق سواء أكانت القوة من قوى الإنسان أم كانت من قوى الطبيعة. ومن أجل ذلك صار الإنسان الذي يبذل مجهوداً عنيفاً يستهلك قوته بسرعة ومباغثة يؤثر في نفوس الناس تأثيراً مؤقتاً أكثر من تأثير الرجل الذي يبذل مجهوداً مثله بطيئاً طويلاً، أو مجهوداً أطول وأكبر.

١١ - في بعض الناس نوع من الكبر، وهو كبر النفوس التي تفضل أن تخوض معارك الحياة وخصوماتها وحدها، ولا تظهر إلا بعد الظفر والانتصار - وهناك نوع آخر من الكبر وهو كبر النفوس التي توهم الناس أنها تخوض معارك الحياة وحدها، وتعمل في خفية عن أكثر الناس في اكتساب من يعينها على الانتصار. وهذا الكبر أكثر شيوعاً؛ لأن أكثر الناس يجبنون بطبعهم عن خوض معارك الحياة وحدهم ويهمهم الانتصار أكثر مما يهمهم أن يقال إنهم خاضوا معارك الحياة وحدهم.

١٢ - لا يدرك أثر الأمور التافهة في إحداث الحوادث الهامة الكبيرة إلا الذين تعدوا السن التي قبلها يسرفون في بذل قوتهم الحيوية كيفما اتفق وفي أية غاية، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، ولعلمهم يدركون ذلك أكثر من إدراك غيرهم لبعدها بين هذه الأمور التافهة الصغيرة وبين عظم المجهود الذي بذلوه كي يحدثوا حوادث أقل من تلك الحوادث التي أحدثتها الأمور التافهة الحقيرة.

١٣ - إن المجادلة والمحااجة التي يراد بها توضيح الأمور إذا لجت بها اللجاجة، فإنها قد تكسب الأمور العظيمة شيئاً من الحقارة.

١٤ - قد يعمر الحزن النفس الإنسانية، فيجعلها أشبه بيهو يرن فيه صوت مقدس يستدعى الخشوع.

١٥ - إن الإنسان في عدله قلما يستطيع التخلص من مخاوفه على نفسه وعلى المجتمع، وقلما يستطيع أن يقدر الإحساسات الخفية والعوامل المستترة، فلا يكون عدله مثل عدل الله الذى يعرف خافية الأنفس وهو مبرأ من المخاوف، فأحسن ما يكون عدل الإنسان كظل لعدل الله قد حورّ وغير كى يكون مناسباً لنفوس الناس ومخاوفها وجهلها.

١٦ - يعتقد الرؤساء دائماً أنهم يستطيعون أن يخلقوا الكفاية لمن ينحازون إليهم ويرشحونهم للمناصب لإشرافهم على عملهم - وهذا كما قال لويس الرابع عشر لابن لوفوا الصغير عندما جعله وزيراً فى وزارة لا يدرك أمورها وطلب الشاب الإعفاء فقال لويس: سأخلق لك الدراية والكفاية.

١٧ - كل نفس فى حاجة إلى أن تحرث فى بعض الأحيان كما تحرث الأرض، والحوادث التى تحرث النفس تفيدها، وإن قلبتها، كما تفيد التربة الخصبة الزراعية من حرث الحارث لها.

١٨ - بعض الناس يريدون أن يصنع لهم الفن ما لا يستطيع أن تصنع الطبيعة، فهم يريدون أزهاراً من غير بذر، وفواكه من غير ثمر، وهذا شأن كثير من الناس فإنهم يريدون أن يصلوا إلى الغاية من غير وسائلها.

١٩ - إننا نخطئ إذ نظن أن الندم على الخطيئة أو الذنب دائماً معناه التوبة، وهو كثيراً ما لا يكون مصحوباً بالتوبة، بل قد يكون ندماً عقيماً يؤدى إلى معاودة الذنب، وهذا الندم قد يكون مصحوباً بلذة فى ذكرى واقعة الذنب الماضى، ولذة فى الأسباب التى دعت إلى واقعته بالرغم مما بالندم من آلام، وهذا يذكرنا قول الشاعر:-

هل الله عاف عن ذنوب قديمة أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

٢٠ - إن السعادة والشقاء والملل والانشراح أمور نسبية؛ فقد يمل الإنسان الحياة الرتيبة الهادئة، ويمل تردد الحوادث اليومية الصغيرة يوماً بعد يوم، حتى

يصير شعوره بالملل شقاءً. بينما أولئك الذين أرهقتهم أعاصير الحياة، وكافحوا عواصفها، قد يرون كل السعادة والهناءة فى تلك الحياة اليومية والحوادث الصغيرة الرتيبة.

٢١ - كثيراً ما يتسامح الناس فى الحكم على فضل ذوى النقص، بينما يشتدون فى الحكم على نقائص ذوى الفضل؛ ولعل ذلك لأن فضل ذوى النقص أمر غير معتاد، فيفاجئ بالانسراح، ويتوقعون من ذوى الفضل التمام فى الفضل، إن لم تكن شدتهم فى الحكم على نقصهم حسداً لهم. وهذا يذكرنا قول المتنبي:-

ولم أرَ فى عيوب الناس نقصاً كنقص القادرين على التمام

٢٢ - إن احترام الناس نفوسهم باحترام غيرهم، سواء أكانوا من الأكابر أم الأصاغر - إنما هو مانع وحاجز من الحواجز الاجتماعية التى تحمى العظيم، كما تحمى الصغير، فيستطيع كل منهم أن يواجه الآخر باطمئنان.

٢٣ - قلما يستطيع الإنسان أن يحكم على معاشر إلا بإحساس واحد، إما الاحترام، وإما الاحتقار. وإن وجد فى نفسه ما يستدعى كليهما، فإنه من الصعب أن يحترم الإنسان معاشراً لصفة وأن يحتقره لأخرى. والاحترام هو الضمان الذى به يستطيع الناس أن يتعاشروا، إذا فقدت حتى مظاهره ما استطاع الناس التعاشر.

٢٤ - بعض النفوس كالماء الضحل القريب الغور، وهذه النفوس لا تستطيع أن تعرض علينا مآسى الحياة، وإن كانت آلامها شديدة فى تلك المآسى.

وقد ذكر مثل هذا المعنى ستيفان زفايج فى ترجمة حياة مارى انطوانيت إذ قال: إن الرجل العبقري قد يتعذب بالمآسى، فيزداد قدرة على التعبير عن الحياة، ولكن من سخر القدر أن يزوج فى المآسى بالرجل الذى ليس عنده قدرة على استنباط ما فيها من عبر، أو فن، أو حكمة، فيتعذب من غير أن يفيد عذابه، ومن غير أن يجد سلوى فى عبقريته أو معيناً منها.

\*\*\*

## تكملة نظرات بلزاك<sup>(١)</sup>

- ٢٦ -

١ - إن المقياس الذى به يقاس ما يستطيع أن يتحملة المرء من الآلام هو مقياس من نفسه، ومن أجل ذلك لا يستطيع المرء تحمل آلام غيره مهما شاركه وعطف عليه وأدعى حمل آلامه وعاونه.

٢ - إن نظرة واحدة من نظرات الغضب أو كلمة واحدة من كلمات العداة والنفور قد تمحو سعادة سنين طويلة من سنى الألفة والمحبة، ولكن بريقًا زائلاً مثلها من السرور وميضاً قصيراً مثل وميض البرق منه، لا يستطيع أن يمحو تعاسة السنين الطويلة من سنى الشقاء، وذلك لأننا نتأثر فى سعادتنا بالآلم، أكثر من تأثرنا فى تعاستنا بالسرور الوامض القصير.

٣ - إن السبب فى أن إحساساتنا لها حياة مستقلة ربما لانستطيع أن نغيرها أن تلك الإحساسات تتشكل وتنمو بما يناسبها من الظروف والأحوال التى أوجدتها، والأماكن التى قويت فيها واشتدت، كما أنها تنمو من نفسها بالأفكار المتصلة بها والتى كانت تشغل فكرنا عندما خلقت، وتعظم بالخواطر والهواجس التى تناسبها فى النفس.

٤ - ربما نزداد قوة وقدرة برعاية من هو أضعف منا وبحمل أثقاله ومعاونته على متاعب الحياة، ولعل بعض من يفعل ذلك يدرك هذه الحقيقة ويلتمس الزيادة فى القدرة بهذه الوسيلة.

٥ - قد يحسب بعض الأقوياء أو من يدعى القوة ويطمح إلى مراتبها أن فضيلة

(١) المقتطف، ديسمبر سنة ١٩٥٠.

القوى وفضله فى حب السيطرة، ولكن الذين يرون القوة أمراً طبيعياً فيهم ولا يباهون بها يعرفون أن فضل الأقوياء فى ألا يشغف القوى بالسيطرة التى هى دليل على فقدان الحنان والعظمة.

٦ - إنك لاتستطيع أن تحكم على إنسان بدراسة حوادث حياته فحسب، كما لاتستطيع أن تدرس التاريخ بمعرفة قوائم الحوادث. بل لابد من دراسة أشجان ذلك الإنسان وأحزانه وعواطفه وأفكاره الخفية ونزعات نفسه وعواملها، أما دراسة الحوادث فهى وسيلة الحمقى.

٧ - إذا تحركت الحياة فى المرء واشتعلت نارها بقوة لم يستطع الاقتصاد من ذلك الاشتعال. بل يدعه يشتعل بإسراف فلا يستطيع أن يقيس الغاية التى يسعى إليها، ولا الوسائل التى يتخذها لها.

٨ - إذا كان الحب لا يغتفر كل شىء فهو لا يغتفر شيئاً، واغتفار الحب قد يُحسبُ جهلاً وغفلة، وهو ليس بجهل ولا غفلة.

٩ - إن صفات المكر والاحتياى والائتمار صفات كثيرة الفرص والوسائل والموارد، وقد تعرف النفس الصافية المهذبة ذلك، ولكنها لاتستطيع أن تتخلق بها حتى ولو حاولت، ولاتستطيع أن تنتفع بها، وإنما جل اعتمادها على ما قد يسعفها عفواً من الوسائل، وما يكون باتفاق المصادفة، وليس اعتمادها على ابتكار الوسائل وصنع الحيل الناشئة من الاحتياى.

١٠ - إن أهل الخير قد يساء بهم الظن، ويحسبون من أهل الشر والكيد إذا كان ينقصهم الذوق السليم، فيعملون ما هو حسن طيب فى نظرهم من غير اهتمام بمعرفة أثره فى غيرهم.

١١ - إن الشباب يقيس المستقبل بفرجار من عنده، فإذا كانت قوة إرادة الشباب وعزيمته توافق الزاوية الكبيرة، التى انفرج عنها الفرجار فى قياسهم المستقبل كانت الدنيا لهم.

١٢ - كما أن فضائل الإنسان تظهر بمظهر أعظم فى البيئة الصالحة لها التى تناسبها ويكون مظهرها مظهرًا منطقيًا أو شبه منطقيًا فى البيئة غير الصالحة لها، كذلك المصائب قد ترخى على فضائل الإنسان حجابًا وستارًا فتخفيها.

١٣ - إن أعظم العظمة وأفخم الفخامة ليست فى المرئيات والظواهر الفخمة العظيمة من أمور الدنيا، بل أعظم العظمة والفخامة فى أمور النفس .

١٤ - أكثر الناس فى الحياة إذا سقطوا كان سقوطهم إلى مستقر قريب، وهم فى سقطاتهم كالأطفال الذين يتألمون ويصرخون ثم ينسون .

١٥ - إنما تحيا النفوس بأن تعطى غيرها من نفائسها، وأن تأخذ من نفائس النفوس الأخرى، وهى قد تعطى غيرها ثم تستعيد بعض ما أعطته بعد أن تحوِّله النفوس الأخرى إلى ذخائر ونفائس من عندها . وهذا التبادل ضرورى للنفس كما أن التنفس ضرورى للجسم .

١٦ - إن المرأة تشعر أنها تكون على أتم جمالها عندما تكون على أعظم سلطة وقدرة، وقد تنال السلطة بفتنة جمالها - ومن أجل حب المرأة لما يجلو جمالها من السلطة والنفوذ تحب الرجل القوى القادر حتى ولو أدت قدرته إلى ضررها .

١٧ - الحب كالبحر فذوو السذاجة لا يرون فى الحب كمن لا يرى فى البحر غير شكل ومنظر واحد لا يتعداه، أما صاحب الميزة فى الحب فإنه كالذى يرى أن البحر لا يكاد يستقر على شكل واحد من أشكال الجمال بل يراه أشكالاً وألواناً متعددة من الجمال .

١٨ - إن الحب يخلق للمحب ربحاً ويوهمه كسباً من كل شىء حتى من الألم والخسارة وما هو أشد منهما، وينسيه مصائب المستقبل .

١٩ - الإيمان زهرة اليقين، والأمل زهرة الرغبة . والأمل خير من الذكرى؛ فإننا نعوم فى بحر من الذكريات، ولكن حيناً لا بد أن يغرق فيه، إما الأمل فإنه يجدد الحب كما يجدد كل نعمة الحياة .

٢٠ - دوام رؤية الوجه ألفةٌ قد تمحو صفات النقص فيه؛ لأنه يطلع الرائي على صفات نفس صاحبه .

٢١ - كل اختراع فيه شىء من عفو المصادفة حتى ولو كان متوقعاً .

٢٢ - ليس الحب إحساساً فحسب، بل هو أيضاً فن به يؤثر المحب فى قلب من يحب من غير أن يذويه، وهو يحدث أثره بكلمة أو بسكوت أو بتردد بين الكلام والسكوت أو ما شابه ذلك، ويلهم المحب متى يحسن أن يفعل أى شىء من ذلك.

٢٣ - كلما عظم نبل النفس ازدادت نفوراً من الخيانة والغدر حتى ولو كان فيها ربح لها.

٢٤ - إن المحبة المزوجة بالأنانية والأثرة لاتنال عطفاً من الناقد البصير بها؛ إذ أن القلب يكره الحب الأنانى الذى يعدّ ويحسب ما ربح، وهذا بالرغم من أن الحب الذى لا يحسب ما ربحه قد يكون ناشئاً فى قلب لايعرف الحياة ولا يقدر الأمور.

٢٥ - إن معرفة الأوقات التى يحسن فيها الصمت تحتاج إلى خبرة ولباقة كالخبرة واللباقة التى تعرف الأوقات التى يحسن فيها الكلام.

٢٦ - إن العاطفة النبيلة تنمو بما يغذيها من تشجيع وعطف وحنان ومودة، كما أن العاطفة الذميمة تنمو أيضاً بما يغذيها من عقد وعداوة وشر.

٢٧ - الزمن يعطى الصبر والعزيمة قدرة على عمل أى شىء.

٢٨ - لم تبتكر طريقة ولا وسيلة لرأم جرح اللفظ على صلاح وصفاء تام، وجرح اللفظ قد يكون أشد من جرح السلاح.

٢٩ - لا يستطيع أن يعرف الأعاصير التى تثور عند قمم الجبال إلا من عاش بينها، وكذلك لا يستطيع أن يعرف النفوس العظيمة إلا من كان من النفوس العظمية.

٣٠ - بالرغم من الأهواء العديدة التى قد تبعث الحمقى والجهلة والأغبياء إلى التغيير والتقلب فإنهم قد يظهرون استمساكاً بمذهب أو حزب أو رأى واحد، وسبب ذلك أن هذا التغيير من حزب أو رأى أو مذهب إلى حزب آخر أو رأى أو

مذهب قد يقتضى منهم تفكيراً، والتفكير فى عقولهم عملية مؤلة صعبة مرهقة  
معقدة مكروهة .

٣١ - إن الرجل الذى فى نفسه جانب نقص لا يستطيع التخلى عنه، إنما يعطى  
أعداءه سلاحاً يستعملونه ضده إذا استطاعوا .

٣٢ - إن الصفة أو الفكرة الفنية توظف النفوس، سواء أكانت فى صنع فنى  
جليل أم فى جسم إنسان حى .

٣٣ - إن الشجاعة لباس يلبسه المرء كى يخفى به نقص نفسه وعوراتها .

\*\*\*